

- ٥٣- مسلم، كتاب البرّ والصّلة، باب من لعنه النّبي صلّى الله عليه وسلّم أوسبّه، رقم: ٦٦٢٢.
- ٥٤- سورة الفرقان: ٧.
- ٥٥- سورة الفرقان: ٢٠.
- ٥٦- سورة الكهف: ١١٠.
- ٥٧- البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى "واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها، مريم: ١٦، رقم: ٣٤٤٥.
- ٥٨- الترمذي، جامع الترمذي، كتاب الأدب، باب كراهية قيام الرّجل للرّجل، ٩٠/٥، رقم ٢٧٥٤، وقال: "هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه"- ورواه البخاري، الأدب المفرد، باب قيام الرّجل لأخيه، ص: ٣٢٦، رقم: ٩٤٦، وقال الشيخ الألباني: "صحيح"، انظر الألباني، السّلسلة الصّحيحة، ١/٦٩٨، رقم: ٣٥٨، ورواه الإمام أحمد، المسند، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، ٣/١٣٢، رقم: ١٢٣٦٧، وعلّق عليه شعيب الأرناؤوط فقال: "إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات.
- ٥٩- بودلي، حياة الرّسول محمّد، ترجمة محمّد محمّد فرج وعبد المجيد جودة السّحار، مكتبة مصر، الفحالة ١٩٨٩م، ص: ٧.
- ٦٠- غوستاف لويون، حياة الحقائق، ص: ٦٢.
- ٦١- علي بن رسول السّنوسي، شرح قصيدة الرّدة، مكتبة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، نسخة مخطوطة، رقم ٤٦٨٦، تاريخ النّسخ ١١٦١ هـ، ورقة ٢٨.
- ٦٢- سورة الأنعام: ١٠.
- ٦٣- أبو الفرج عبد الرّحمن بن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق: محمّد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١- ١٩٩٢م ١١/١٣٥.
- ٦٤- سورة الحجر: ٩٥.
- ٦٥- سورة الأنبياء: ١٠٧.
- ٦٦- محمّد بن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنّحل، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٩٠/٢.
- ٦٧- الشيخ أبو الحسن التّدوي، الطّريق إلى المدينة، دار القلم، دمشق، بيروت، ط٤، ١٩٨٠م، ص: ١٢١-١٢٩.

المنهج الدراسي في العصرين: الجاهلي وسدور الإسلام

الدكتورة راحيلة خالد القرشي * الدكتور عبد المجيد البغدادى **

إن التعليم له دور بارز في تطوير اجتماعي من النواحي المختلفة مثل الثقافة والسياسة والاقتصاد والاجتماع ولا بد لكل أمة تريد أن تهض في حاضرها أن تزيّن أفرادها به - فإن الأمم التي تستضيء بنور العلم تفلح فيما تحاول، وتستغلب على الصعاب التي تعترض سبيلها - فنرى أن أول نداء إلهي يشتمل على فضيلة العلم، و أن القول الأول من أقوال الله تعالى الذي أشار إلى العلم وجعله السلاح على دفع الأمية وجعل العلم اللبنة الأولى في بناء المجتمع ⁽¹⁾ وتوجد في القرآن الكريم الآيات الكثيرة التي تحث على حصول العلم والاشتغال به، وأقوال النبي ﷺ أيضاً تشير إلى عظمة العلم والعلماء ، ويظهر بهذه الأقوال أن الاشتغال بالعلم هو أفضل من نوافل العبادات البدنية من صلاة وصيام و تسبيح و دعاء ⁽²⁾ فروى أن الرسول ﷺ مرّ بمجلس في مسجده فقال: كلاهما خير، أحدهما أفضل من صاحبه، أما هؤلاء فيدعون الله و يرغبون إليه فإن شاء أعطاهم و إن شاء منعهم و أما هؤلاء فيتعلمون الفقه و العلم و يعلمون الجاهل، فهم أفضل وإنما بعثت معلماً، قال ثم جلس فيهم ⁽³⁾.

و العلم في الإسلام ليس خاصاً بعلم الشرائع والأحكام من حلال و حرام وإنما العلم في نظره هو كل ما يفيد الإنسان في قيام المهنة العظمى التي ألقيت على كاهله منذ خلقه وجعله الخليفة في الأرض - وإذا يأمر القرآن النبي ﷺ بالقراءة في الوحي الأول ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ يقرن ذلك باسم ربه ويختار لفظ الربّ دون بقية الألفاظ الدالة على الذات الإلهية من مثل "الله" و"الخالق" و"البارئ" ونحوها، قيل ⁽⁴⁾ وفي هذا الاقتران اللفظي إشعار بأن القراءة التي أمر بها النبي "إنما هي للتربية والتعليم وليست للتعليم فحسب" ⁽⁵⁾.

وإن للتعليم الإسلامي الطرق الخاصة التي تميّز بها وسار على نهجها المعلمون وتطوّرت طرق التعليم بمرور العصور، وفي الحقيقة طرق التعليم ووسائله مرتبطة مباشرة بفضّل زيادة اهتمام الناس بالعلم والعلماء وكثرة طلب العلم وتعدد وسائل التعليم والتعلّم - والتاريخ العربي يحدّثنا عن

* الأستاذة المشاركة، رئيسة قسم اللغة العربية، الجامعة الإسلامية، هانوفور، باكستان.

** المحاضر بقسم اللغة العربية، جامعة العلامة إقبال المفتوحة، إسلام آباد، باكستان.

اشتغال العرب بالتعليم والتعلم منذ قديم ، وتوجد في المصادر الأدبية والتاريخية إشارات إلى المعلمين الذين اشتهروا في العصور القديمة ، وكانت لهم مكانة ممتازة في المجتمع ، قد ذكر ابن حبيب^(٧) أشرف المعلمين ، منهم ؛ بشر بن عبد الملك السكوني أخو أكبر صاحب دومة الجندل ، وسفيان بن أمية بن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ، وغيلان بن سلمة بن معتب الثقفي وهو مخضرم ، وعمرو بن زرة بن عدى بن زيد (كان يسمّى بالكاتب).

طرق التعليم

ويذكر بالروايات أنهم كانوا يعلمون أبناءهم وأن العارفين والمعلمين كانوا يتمتعون بمكانة ممتازة كما كان: (للكتاب) مكانة مرموقة أيضاً ، ولكن طريقة التعليم كانت غير معروفة فيذهب الدكتور جواد علي إلى قوله: "لم نثر على أي نص جاهلي فيه شيء عن التدريس وعن مواد الدراسة عند الجاهليين نستنبط منه مادة عن الدراسة عند عرب الجاهلية"^(٨).

وفي المصادر القديمة بعض الروايات تخبرنا أن عدداً من الأدياء أو غيرهم كانوا يعلمون أبناءهم بطريقة خاصة وكذلك تعلموا الكتابة، فحاء الإسلام و في مكة سبعة عشر رجلاً يعرفون الكتابة منهم: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة، وزبير، وأبو عبيدة، و إبان بن سعيد، وخالد بن سعيد وغيرهم رضي الله عنهم و من النساء: الشفاء بنت عبد الله العدوية وعائشة بنت سعد التي روي عنها أنها تعلمت عن أبيها^(٩) فكانت لمكة المكرمة أهمية خاصة عند العرب ؛ فكانت مركز التجارة، والتجارة تحتاج إلى الكتابة - فعرفت في العصر الجاهلي طريقة التعليم الخاص والطريقة المألوفة فإنها تتعلق بتعليم الكتابة - وكانت توجد عندهم أما كن للتعليم سميت (الكتاب) وقد جاء ذكر ذلك في "لسان العرب" في مادة "كتب" فقال ابن منظور: المكتب (بضم الميم وكسر التاء) موضع التعليم ، والمكتب المعلم، والكتاب، الصبيان - ومنه قيل : كتب الكتاب؛ لأنه يجمع حرفاً إلى حرف"^(٩).

وروي أن حماداً هو أول من كتب في بني أيوب وعلمته أمه الكتابة في بيت أبيه فطلب حتى صار كاتب الملك النعمان الأكبر وعلم ابنه زيداً^(١٠) وذكر أن عبدالله بن جدعان علم حرب بن أمية ، وبشر بن عبد الملك علم أبا سفيان وكان تعلمه من مرمر بن مرارة وأسلم بن سدرة ، ثم تعلمه عمر بن الخطاب و معاوية رضي الله عنهما وجماعة من قريش^(١١).

فقد جاء في ترجمة "عدى بن زيد" أنه طرحه أبوه في الكتاب حتى إذا حذق أرسله المرزبان مع ابنه شاهان مرد إليه كتاب الفارسية ، فكان يختلف مع ابنه ويتعلم الكتابة والكلام بالفارسية^(١٢) وروي عن خالد بن الوليد أنه مرّبعين النمر أثناء سفر من أسفاره و وجد في كنيسة صبيانا يتعلمون الكتابة في قرية من قرأها، تقال لها: النقرة ، وفيهم حمران مولى عثمان بن عفان^(١٣) استنبط العلماء هذه الروايات أن التعلم عندهم، هو أنهم كانوا يعلمون الحجاجية أولاً، ثم

يتعلّمون بعد ذلك كلّ شيء وورثوا هذه الطريقة من الأوائل - فأشار إليه أبو نواس في بيت من أبياته الشعرية فقال:

شادن يكتب في اللوح بتعليم هجاه كلما خط أبا جاد قراه فمجاه^(١٤)

وقد ذكر الدكتور "جواد علي" الموارد النصرانية (وخاصة نصارى العراق) عن التربية والتعليم في العصر الجاهلي، والمواد التي كانوا يتعلّمونها طلباً منهم في تلك المدارس يستنتج من خلالها: "بأن مدارس الأنبار والحيرة والقرى العربية الأخرى، لا بدّ أن تكون قد سارت وفقاً لمنهج أهل العراق في تعليم أبنائهم في ذلك الوقت"^(١٥). والمنهج التعليمي في تلك العصور القديمة يقوم على مبادئ القراءة والكتابة وإجادة الخطّ وشيء من الحساب والأمثال والحِكْم ومبادئ الدِّين وهي المواد الأساسية التي كانت تُعلّم في الكتاتيب والمدارس^(١٦).

وكان طريقهم في تعليم الخطّ للأطفال هو أن يخطّ المعلم أو خليفته أو من يقوم مقامه من التلاميذ المتقدّمين سطرًا من الحِكْم والأمثال أو من الكتب السماوية لينقش سطوراً مثلها على لوح يحاول الإجابة جهداً إمكانيه في كتابتها لتقوية يده على الخطّ^(١٧)، أما الفرق بين المدرّسين والعلماء الذين لم يتخذوا التدريس مهنة لهم فليس عندهم حدّ فاصل في ذلك فقال الدكتور جواد علي: "لم يكن في العصور الوسطى حدّ فاصل بين العلماء المدرّسين والعلماء الذين لم يتخذوا التدريس مهنة لهم والجميع كانوا يعملون بأجر وتطوّع لتثقيف الناس وتعليمهم أمّا عن طريق حلقات التعليم أو بتأليف الكتب"^(١٨). وقال: أمّا تدريس اللغة العربية في الأنبار والحيرة التي درسها نصارى العراق فهو لم تتوقف على تدريس مفردات اللغة وقواعدها وأصولها ولا يعقل أن يكون المراد من العربي الكتابة والقراءة فقط بل لا بدّ أن يتعلّم معها شيء من أصول الكتابة من كيفية قطع القلم ورسم الحروف وأنواع الخطوط، ثمّ الأمثال والحِكْم وقواعد اللغة وآدابها وكان رجال الدين يسرون عليه ويتبعونه في مدارسهم^(١٩).

وعرب الجاهلية عاشوا حياة خاضعة للخرافات والأوهام فإنهم كانوا يعبدون الأصنام واكلوا أمورهم إليها، وبالعوم كانوا مشغولين في الحروب بعضهم بعضاً وكانت الكهانة والعرافة معروفة عندهم، حتى ذهب بعض الباحثين إلى إنكار القراءة والكتابة في بلاد العرب وانتشارها ولكن بتطوّر الأحداث عند ظهور الإسلام، ثبت بأن الاستعداد لديهم كان متوافراً وهذا ممّا دعاهم إلى الإقبال الشديد على التعليم والتعلّم وانتشار القراءة والكتابة بشكل واسع. دعا الإسلام إلى حصول العلم منذ أول عهده وحثّ على طلبه وبشر برفع من قدر العلماء وطلّاب العلم و كانت الآية الأولى باعثة للمؤمنين على القراءة وطلب العلم كما كان هدف من أهداف النبي ﷺ العمل على نشر علم منذ أول تأسيس الدولة الإسلامية. وأنه فتح أبواب التعليم للعرب الأميين^(٢٠) وفي الحقيقة كانت حياة النبي ﷺ كلّها دعوة إلى التعليم وتعلّمه وتدوينه ونشره والانتفاع به. ولهذا رأينا أن عدد الكتاب الذي لم يكن يزيد على بضعة عشر نفراً، أصبح يزيد

بجهوده، أنه قرّر مجموعة من أسارى قريش في معركة بدر كانوا يعرفون القراءة والكتابة بأن يعلم كل منهم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة نظير فداثة^(٢١). يلاحظ من هنا أن عملية التعليم والتعلم أصبحت مهمة واتخذت في ذلك العصر صفة جماعية ورسمية ومنها صفة خاصة وهي قيام الاسرى للتعليم. وكان النبي ﷺ يستخدم الذين يعرفون القراءة لكتابة الوحي، وأن النبي ﷺ اتخذ المسجد مركز للدرس والتدريس، ولا شك فيه أن المسجد كان حلقة التعليم في الإسلام ومركز التوجيه الفكري والتربوي والأخلاقي والاجتماعي ومعهد العلم؛ فكانت تلقى فيها الدروس والمواعظ للرجال والنساء على السواء. ولم تكن المراكز العلمية في العالم الإسلامي طوال قرون عديدة سوى المساجد. ويبدو من الروايات أن التعليم كان مجتأ في عصر صدر الإسلام ولم يأخذ الصحابة رضي الله عنهم على التعليم أجراً من أحد من المتعلمين وقد كان عطاءهم السنوي هو الذي كانوا يأخذونه من بيت المال وكانت تشمل مجانية التعليم عندهم مجانية الكتاب أو مواد الدراسة، فيروى ابن قتيبة بسند عن عبدالله بن شقيق أنه قال: "كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون بيع المصاحف ويروونه عظيماً وكانوا يكرهون أن يأخذ المعلم على تعلم العلم شيئاً"^(٢٢) وأن كراهتهم هذه مبعثها، هي النبي ﷺ عن أخذ الأجر على التعليم من جهة وخوفهم من جهة أخرى من ذهاب الثواب الذي يناله المعلم - وقرّر النبي ﷺ الكتابة واجباً لعملية التعليم وحث المسلمين على تعلمها، فقال: "قيدوا العلم بالكتاب"^(٢٣). وسار أصحاب النبي ﷺ على نهجه العلمي القديم بعده فعنوا بتدوين العلم؛ روى أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: "قيدوا العلم" فسأله من سمعه: وما تقيده؟ فقال: تعلموه وعلموه واستنسخوه، فإنه يوشك أن يذهب العلماء ويبقى القراء لا تجاوز قراءة أحدهم تراقيه^(٢٤). وكذلك حث الرسول ﷺ على قراءة القرآن الكريم وفي الحقيقة كان لقراءته أثراً بالغاً في التحفيظ على تعليم القراءة والكتابة في صدر الإسلام وفي بقية العصور بعده. كما كانت الحاجة إلى كتابة القرآن (ونسخته بنسخ كافية تفيد عدداً كبيراً من المسلمين) وسيلة من وسائل تحفيز على محو الأمية وسبباً من أسباب انتشار العلم. فكانت الصحابة الكرام رضي الله عنهم يعنون بتحسين الخط وتطويره^(٢٥)، وكان علي بن أبي طالب يؤكد لكاثبه عبيد الله بن أبي رافع بوضوح الخط وجماله وتنظيمه فيقول: ألق دواتك وأطل جلفه قلمك، وفرج بين السطور، وقرمط بين الحروف، فإن ذلك أجدر بصياحة الخط^(٢٦)، فقوله يدل على أهمية علم بأصول الخط ورسم الحروف. أما أسلوب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في تعليم الصبيان فهو أسلوب بعيد عن الملل؛ فكانوا يتركون الصبي في بداية عمره قليلاً للعب حتى تتوفر همته على القراءة ويشبع حاجته منه قبل أن يتلقى العلم^(٢٧). ورأى النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أن يكون سنّ الطفل مناسباً للمعلومات التي سيتعلمها، فذهب عمر من تعليم القرآن خمس آيات^(٢٨).

ولم تكن طريقة التعليم خالية من الملل فحسب في صدر الإسلام بل كانت بعيدة عن القسوة والعنف أيضاً أما أسلوب النبي ﷺ وأصحابه في تعليم الصبيان فهو أسلوب بعيد عن الملل - وكان النبي ﷺ يرى العنف منافياً للتعليم ومضاداً له فقال:

"عَلِّمُوا وَلَا تَعْنُوا ، فَإِنَّ الْمَعْلَمَ خَيْرٌ مِنَ الْمُعْتَفِ" (٣٩).

وقال يوصي المعلم: "عليك بالرفق ، فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ... " (٣٠). وكان النبي ﷺ (وهو المعلم الأول) يقول: "إن الله لم يعثني معتاً ولا متعتاً ، ولكن بعثني معلماً ميسراً" (٣١).

إن النبي ﷺ رسم للمعلمين أساليب التعليم وطرقه من ناحية وبين الآداب التي يلتزم بها المتعلم في مجالس الدرس من ناحية أخرى. فاتبع المسلمون هذا المنهج بعده، يقول علي بن أبي طالب مخاطباً بعض تلاميذه: "من حقّ العالم عليك إذا أتيت، أن تسلم على القوم عامةً وتخصّه بالتحية وأن تجلس قدامه ولا تشير بيدك ولا تغمز بعينك ولا تقول: قال فلان، خلافاً لقوله ولا تغتاب عنده أحداً، ولا تسار في مجلسه ولا تأخذ بثوبه ولا تلح عليه إذا كسل ولا تغرض (لا تضح) من صحبته لك فإتما هو بمنزلة النخلة، لا يزال يسقط عليك منها شيء" (٣٢). والجدير بالذكر أن النبي ﷺ اهتم بتعليم المرأة وأكد أن تتزين المسلمات بحلية العلم (وأن تعليم المرأة ضروري والمجتمع يتقاضى لتلك الضرورة لأن المرأة نصف المجتمع). فكان يريد أن تتعلم المسلمات القراءة والكتابة وأن يتعلمن الأحكام الشرعية والمعاني الأخلاقية؛ فعهد إلى بعض النساء بتعليم الأميات من أهله وأسرته الكتابة والقراءة من خيرة النساء المسلمات كما ذكرنا، هي الشفاء بنت عبدالله بن عبد شمس لتعلم السيدة حفصة الكتابة (٣٣) وجعل الرجل أن يتولى تعليم من معه في الدار من فتاة وأن يتولى تعليمها وتربيتها ليجعلها عضواً نافعاً للأسرة والمجتمع.

ومن الروايات التي تدلّ على اهتمام الرسول ﷺ بتعليم المرأة: فقد ورد عنه ما يشير إلى أن تعليم المرأة القرآن قد يكون بدلاً من مهرها لمن عدم المال (٣٤) وخصّ النبي ﷺ لهم أوقات معينة جعلها فرصة لتعليمهن، بعد أن تبين له أنهن لا يستطعن أن يسمعن كلامه ودرسه وهنّ بعيدات عنه بالجلوس بعد صفوف الرجال (٣٥) وأعطاهنّ فرصة طيبة للحضور في المجالس العلمية - فالتبى ﷺ بين لنا طرق التعليم وأساليبه لتعليم الصبيان والفتيان والنساء على السواء، وجعل الاشتغال بالعلم فريضة لكل مسلمة كما قرره فريضة لكل مسلم وأرفع قدر المعلم والمتعلم. والصحابة الكرام رضي الله عنهم والمسلمون بعدهم تبعوا نهجه في الدرس والتدريس. وكما قلنا إن المساجد كانت مراكز العلم في العالم الإسلامي في صدر الإسلام وبعده لمدة طويلة، فأصبح التراث الإسلامي مرتبطاً بها، نشأت فيها العلوم المختلفة وقامت المحاورات والمناظرات.

وكانت طريقة التدريس في المساجد في القرون الماضية هي أن الشيخ أو الأستاذ كان يجلس إلى أحد أعمدة المسجد مستنداً إليه ومتّجهاً إلى القبلة (٣٦) وكان الشيخ يجلس على خشبة

صغيرة أو على منصة (وكانت تعرف هذه بـ (السدة) متكأً على العمود أو على الحائط والمستمعون كانوا يجلسون بحسب ترتيب معين، لكل طبقة مكان معين في هذه الحلقة ويكون الأستاذ في أبرز نقطة في محيطها، وكان يترك في الحلقة فراغ ليجلس فيه من يحب أن يستمع إلى الدرس من الداخلين^(٣٧) وكان الشيخ أو المعلم يفتح الدرس بالبسملة والحمد لله وبالصلاة والتسليم على الرسول ﷺ ليحث الطلاب على طلب العلم والمعرفة^(٣٨)، ثم يملى ما عنده من المادة العلمية ويستخدم في املاء مساعداً يسمى "حلياً" يردد وراءه ما يقوله حتى يبلغ السامعين صحيحاً سليماً من شوائب الخطأ والتحريف - ولما انتهى الدرس كان يقرأ الفاتحة ويعين الموضوع للدرس المقبل^(٣٩).

أما موضوعات الدرس التي يعلّمها المدرّس، فكان يعظ الناس بالعموم بما يعرف وما دام لا يتقاضى من الدولة أجراً على عمله، فقد ترك له أن يدرس ماشاء في الوقت الذي يشاء^(٤٠). ذكر الجاحظ في "البيان والتبيين" أن جعفر بن الحسن أول من اتخذ حلقة في مسجد البصرة لقراءة القرآن الكريم^(٤١). وكذلك كان حلقة الحسن البصري فيها قامت المناقشات حول كثير من المسائل الدينية الكثيرة بين واصل بن العطاء رئيس المعتزلة وبين غيره من الفقهاء في نفس المسجد. ونشطت زوايا الدرس وحلقات العلم في المسجد الأموي بدمشق وكان للخطيب البغدادي حلقة كبيرة يجتمع فيها الناس بكرة كل يوم فيقرأ لهم، وكان اذا قرأ الحديث سُمع صوته في آخر الجامع^(٤٢). ذكر ابن جبير يصف الحلقات التي انعقدت في الجامع الأموي بدمشق^(٤٣): "ظَلَّت حلقات الدروس في ازدياد يتزعمها أئمة الفقهاء والقراء وأهل الأدب والحكمة، يجتمع فيها الآلاف من الطلاب والقراء والكتاب، فمنها ظهر العلماء والأدباء والشعراء والكتاب مثقفين بالثقافة العربية ومشاركين في المناصب العليا في الدولة ودواوين الحكومة"^(٤٤).

والجددير بالذكر أنها كانت الرواية هي النظام الأساسي قام عليها التعليم الإسلامي، إن العرب اهتموا بالرواية وفي الحقيقة ذلك يرجع إلى طبيعة العقل العربي فعندهم قدرة فائقة على الحفظ و كانوا يحفظون آلافاً من الأبيات والأراجيز والأمثال (الحِكْم) والأحاديث ويروون كل ذلك، فأصبحت الرواية وسيلة من وسائل نشر الثقافة. ونرى أنه كان لكل شاعر في العصر الجاهلي رواية يحفظ شعره ويروي عنه، وكثيراً ما يكون الراوي نفسه شاعراً^(٤٥).

وبعد أن جاء الإسلام أصبحت الرواية مادة صالحة لحفظ ورواية الأحاديث النبوية، وكان الاعتماد يقوم على الرواية فيما سمعه أصحاب النبي ﷺ من أحكام وإرشادات أو غيرها ثم شاعت الرواية في العلوم الإسلامية الأخرى من الفقه وعلم الكلام وغيرهما وأصبح الإسناد من لوازمها^(٤٦) وكان السماع والحفظ في (العصر الجاهلي) معروفاً شائعاً وأساس الرواية لعدم انتشار الكتابة والقراءة قيل: "ومادامت الرواية موقوفة في صدر الإسلام (القرن الأول) عليهما، ورغم انتشار الكتابة فيما بعد ظل السماع وسيلة قائمة من وسائل أخذ العلم - فكانت المؤلفات العلمية تروى عن صاحبها بالسماع منه وكان العرب يفاخرون بكثرة الحفظ وسرعته، فيقال في كتاب

التراجم والأخبار: فلان يحفظ كذا من الشعر وكذا من الأمثال فيقال في كتب التراجم والأخبار: فلان يحفظ كذا من الشعر وكذا من الأمثال وفلان أحفظ أنساب العرب وغيرها^(٤٧)، وتوجد في المخطوطات العربية كثيراً من عبارات السماع مثل: سماع الحافظ أبي الفضل محمد بن ناصر إسلامي المكتوب بخطه وكان من عادة من يسمع شيئاً عن أستاذه دون مسمعه مسجلاً اسم أستاذه واسمه وتاريخ ذلك ويسمى "سماعاً"^(٤٨) ولأنه كان تعليم المهجاء والخط أساس العملية التعليمية ومن أبرز الطرق التي اعتاد عليها معظم المسلمين والشيوخ في حلقاتهم ومدارسهم فكان على الطلبة تدوين ما يُتلى عليهم ومذاكرته في ما بعد خاصة إذا كان المدرس يلقى من محفوظات^(٤٩).

وشاعت طريقة الإملاء وكان في شيعها حظ انتشار الكتابة وأدواتها مثل القلم، والورق، والحبر وغيرها، وتحوّل طريقة التعلّم من السماع والحفظ الى الإملاء تشير إلى مرحلة التطوّر في طرق التعليم. والفرق بينهما أنّ في طريقة السماع لا يهتم الطالب الشيخ بكتابة ما يقوله الشيخ أو المعلم في ذلك الموضوع فأنه يتحدث والتلميذ يسمع. أمّا في الإملاء فكان الدرس يُلقى بطيئاً فقرةً فقرةً أو حديثاً مع اتصال السند. روى "بعد انتهاء إملاء الحديث أو فقرة مستقلة كان الأستاذ يشرح ماغض من الأمالي فاذا اكتملت أمالي الشيخ في ذلك الموضوع فأنه ربما قرأ الأمالي أو قرئت عليه لتصحيحها وكانت مجموعة المحاضرات التي تُلقى بطريقة الإملاء تُسمى "الأمالي" ومنها تكوّنت المخطوطات التي طبع الكثير منها فأصبحت كتباً شهيرة^(٥٠) (وما يزال المخطوط منها حتى الآن) ومن المخطوطات المطبوعة "الأمالي" لأبي علي القالي التي أملاها في جامع الزهراء بقرطبة^(٥١).

وكانت القراءة أيضاً طريقة من طرق التعليم القديمة ووسيلة من وسائل الدرس والتدريس. وفي هذه الطريقة كان الدرس يُلقى من كتاب يمكن الحصول عليه. "وروى أن هذه الطريقة كانت هي أن يقوم أحد من الطلبة ويقرأ الكتاب يختاره الأستاذ وحده أو مع أحد من زملائه، كان يقوم الأستاذ بعد ذلك يشرح الغوامض من الفقرات أو الكلمات والجمل ويعطي فكرة عامة من موضوع الدرس، ثم يبدأ قراءته من حين آخر بالتعليق على الفقرات وممارستها مع غيرها. قيل: أنها كانت هذه الطريقة نتيجة لقلّة الاجتهاد وضعف حركة الابتكار فأخذت تحل محل الإملاء بالتدرّج وأخذ الإملاء يختفى شيئاً فشيئاً من التعليم الإسلامي في القرن الرابع الهجري^(٥٢)،^(٥٣).

والأهمّ في هذه الطريقة هو اختيار الكتب الموزونة؛ فقال أحمد شلبي: "ومن نتائج هذه الطريقة "تقرير" كتب معيّنة على الطلاب يدرّسونها بمعونة الأستاذ"^(٥٤). وظلت طرق أخرى معروفة متداولة في تاريخ التعليم الإسلامي كانت منها السؤال والمناقشة والمذاكرة وأخيراً الرحلات في طلب العلم، وهذه الوسائل مرتبطة ارتباطاً مباشراً بعملية التدريس، إن السؤال والمناقشة لها أهميّة خاصة لاستكمال عملية التعليم وإعانة الطالب على الفهم ولذلك نرى أن هذه

الطريقة إحدى الطرق الرئيسيّة التي تستخدم في تدريس العلوم حتى في عصرنا الحاضر، قيل: وتبرز أهمية هذه الوسيلة من خلال إشراك الطلبة في مناقشة ما يتعلمونه، كما عدّ الحياء في السؤال من آفات العلم^(٥٥). وكانت للمناقشة والسؤال بين الطلاب وأستاذهم آداباً خاصة. وقد أشار القرطبي في فصل من أبواب آداب العالم والمتعلم الى أهمية المناظرة، ورؤى عن الخليل بن أحمد الفراهيدي أنّه قال: "اجعل تعليمك دراسة لك واجعل مناظرة العلم تنبيهاً بما ليس عندك"^(٥٦).

ولا شكّ فيه أن الطلبة يكونون أكثر استمتاعاً في الدرس نتيجة المشاركة في المناقشة فإنّ هذه الطريقة تعطي فرصاً للتفكير بعمق ويقدرّون بها على التحليل والاستدلال والاستنتاج، وتساعد هذه الطريقة في الوقت نفسه المدرّس على معرفة مدى فهم الطلاب لما درسوه من مواد فأنه كان لكلّ طالب حق في أن يسأل لاستيضاح ما صعب فهمه.

والأسلوب في تنظيم المناقشة هو أن تدوّن الأسئلة في رقاع وتقدّم الى المحاضر ثم يبدأ بالإجابة عمّا ورد فيه. وهذا هو ما يتّبع في جامعاتنا أعقاب المحاضرات والتدوات العامّة وتبرز به حرية الفكر وديمقراطية التعليم الإسلامي وهذا الأسلوب يشير الى اتّساع أفق التعليم والثقافة في المسلمين بالعموم والأدب بالخصوص.

ومنها "المناظرة" التي أعانت على بثّ الروح العلميّة في معناها الحقيقي وكانت المناظرات بالعموم تُعتقد بين الأساتذة والعلماء، وكان لها فضل كبير في توسيع أفق التفكير وتنمية العقول. وهذه الطريقة من أقدم وسائل العلم عند المسلمين وفي القرن الثاني الهجري اعتمد عليه أئمة المذاهب والفقهاء لاستنباط حقائق الفقه واستخراج أصوله. فنرى التاريخ حافلاً بذكر عدد كثير من المناظرات التي وقعت بين المعتزلة وأهل السنّة وأصحاب الأديان الأخرى؛ فظلت المناظرة عاملاً قوياً من عوامل النشاط الفكري الإسلامي^(٥٧).

نتائج البحث

فهذه هي الطرق التي تشير اليها الروايات التاريخية، ويبدوها أنّ هذه الطرّقت ظلّت شائعة معروفة في عصور قديمة وبعدها، وأنها متداولة حتى عصرنا الحاضر مثل القراءة والحفظ و المناقشة. وطريقة المناقشة هي أهمّ وأنفع من جميع الطرّقت في الجامعات والمعاهد العلميّة الأخرى. أمّا القراءة والإملاء والحفظ فأنّها كانت معروفة في المدارس الابتدائية والثانوية وغيرهما، ولها أهمية خاصّة في النشاط العلمي^(٥٨). وكانت مراحل التعليم في العصر القديم في الدول المتقدمة تُقسم إلى أربعة: التعليم الابتدائي، والثانوي، والجامعي، والدراسات العليا^(٥٩). وكان الطلاب يُقسمون حسب مقدارهم للتحصيل العلمي إلى طبقات ثلاثة: المتدئين، والمتوسطين، والعليا^(٦٠). وفي هذا التقسيم للمراحل الثلاث دلالة واضحة على صحة وسمو المناهج التربوية الإسلامية. ولم يكن التقسيم حسب سني عمر الطلبة بل كان ذلك بحسب مقدرتهم وكفائتهم العلميّة؛ فيضعون

الطالب في المرحلة أو الطبقة التي يستحقها. ونرى أن هذه الطرق والمراحل متداولة معروفة في عصرنا الحاضر ولا يجحد أحد بأهميتها في تعليم الطلاب وتربيتهم؛ فإنها أقيمت على أسس متينة من أصحاب ذوى خبرة واسعة في تعليم الأطفال و ذوى علم راسخ للفنون والآداب المختلفة وأصحاب نظر عميق في نفسية البنين و البنات في تلك العصور و لا بدّ لنا أن نبذل أقصى جهودنا لتعليم أطفالنا و شبّاننا مستفيدين من تجارب أسلافنا العظماء. ولا يجوز لنا تركها أو رفضها قائلين بأنها طرق قديمة، بل تلك الأساليب القيمة هي في الحقيقة أسس متينة للأساليب الجديدة في تعليم الطلاب وتربيتهم في مراحل التعليم المختلفة من المدارس الابتدائية إلى المدارس العليا والكليات والجامعات والمدارس الخاصة الأخرى. ولا بدّ لنا اتباعها رغم أن نسميها بتسميات مكروهة و أن نفقد هدفنا الصحيح في هذا المجال. ولا بدّ من التطور و الرقى في تلك الطرق حسب مقتضيات العصور الحديثة و علينا أن نعمل لها- والله المستعان و بالله التوفيق.

الهوامش

- ١- لقد كانت السورة الأولى التي نزلت على النبي ﷺ الأمي تحت على القراءة والكتابة فقال: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق ١-٥)، وفيه تعريف وتعظيم لكل من علّم أو تعلّم أو أمسك القلم مدى العصور- المكتبات في الإسلام، محمد ماهر حماده، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٠م، ص: ٢٧.
- ٢- فقال الله عزوجلّ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ١٠)، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ (آل عمران: ١٨)، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران: ٧).
- ٣- الدارمي، مسند الدارمي، دارالمغني للنشر والتوزيع، ٣٦٦/١.
- ٤- الغزالي، فاتحة العلوم، القاهرة ٥١٣٠٩، ص: ١٩.
- ٥- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار المعارف مصر: ١٩٦٣، ص: ١٩.
- ٦- أبو جعفر محمد بن حبيب اوس الطائى، كتاب المحرر، بيروت، ص: ٤٧٥.
- ٧- جواد على (الدكتور)، المفصل في أحوال العرب قبل الاسلام، ط: ١، بيروت ١٩٧١م، ٢٩٨/٨. (ان يرى أن التدريس والدراسة كان معروفا في العصر الجاهلي وكانت كلمة الكتاب تستعمل للمدرسة التي يتعلّم فيها الأطفال القراءة والكتابة ومبادئ المعرفة).
- ٨- ابن عبد ربه، العقد الفريد، دار المعارف، مصر، ١٤٨/٤.
- ٩- ابن منظور، لسان العرب: (كتب)، قم، ايران ١٤٠٥ هـ - ١٣٦٣، ٢/٦٩٨، ٦٩٩.
- ١٠- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، مصر ٥١٣٩٠ - ١٩٥٨ م، ٩٨/٢.
- ١١- القلقشندي، صبح الأعشى، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، مصر، ١٠/٣.
- ١٢- الأغاني: ٩٩/٣.
- ١٣- الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٣٠١/٥، وفي رواية الطبري وُجد في حصن عين النمر أربعين غلاما يتعلّمون الانجيل (٣/٣٧٧، دار المعارف، مصر)
- ١٤- أبو نواس، الديوان، ت: عبدالمجيد الغزالي، بيروت ١٩٥٣ م، ص: ٣٣١.
- ١٥- المفصل: ٢٩٧/٨-٢٩٨، قيل: "وقد كان للمسيحية أثر كبير في التربية والتعليم ودور بارز وفعال فيهما وكانت طريقة التدريس تعتمد بالدرجة الأولى على الذاكرة والمواد التي كانت تعطى كلها نقلية وكانت تحمل ذاكرة الطلاب بحمل لا يطيقه أكثرهم وكان أسلوب الكنيسة

العقاب؛ فكانوا يعاقبون الأطفال بالحرمان والحبس والعقاب البدني لاعتقاد الطاعة المطلقة في نفوسهم. (جابر عمر، المدخل في التربية، ط: ٢، بغداد ١٩٥٤، ص ٢٩).

- ١٦- نفس المصدر، ص: ٢٩٨.
- ١٧- نفس المصدر.
- ١٨- نفس المصدر.
- ١٩- قيل: إن للأمية مفهومين: الأمية الأبجدية والأمية الحضارية: الأمية الحضارية تتعلق بقدرة على الفهم والإدراك. (لينظر التفصيل في "دائرة المعارف الإسلامية" مادة (أُمِّي) ٢/٢٦٥).
- ٢٠- وهم لا يستطيعون أن يدفعوا الفدية فرخص لهم بهذه الطريقة ، صبح الأعشى : القاهرة، ١٩١٧، ١٥/٣. وقيل: كان زيد بن ثابت ممن علم. (ابن سعد، كتاب الطبقات الكبيرة، طبعة ليدن (٥١٣٢٥)).
- ٢١- ابن قتيبة، عيون الأخبار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ٥١٣٨٣ - ١٩٦٣ م، ١/١٣١.
- ٢٢- مقال الدكتور كاصد ياسر الزيدى: "محفزات محو الأمية في عصر صدر الإسلام" مجلة آداب الرافدين، ص: ١٣١.
- ٢٣- الدينوري، أبو عبدالله محمد بن عليم الحكيم، الأمثال من الكتاب والسنة، ت: على محمد الجباوى ، دار النهضة ، مصر ، القاهرة ، ١٩٧٥، ص: ٣١.
- ٢٤- وكان لحسن الخطّ أثر بالغ في إيصال العلم الى المتعلّم ببشر وتشويق، وأنه يؤدى دورا مهما في النشاط العملى والتعليمى.
- ٢٥- محمد عبده، شرح نهج البلاغة - ت: محى الدين عبد الحميد ، مطبعة الاستقامة - القاهرة (بلون سنة)
- ٢٦- ابن كثير، عماد الدين اسماعيل، فضائل القرآن - دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م، (قيل: هذا المنهج التربوى هو ما تؤديه اليوم "رياض الأطفال" إذ يرسل اليها الصغار لإشباع هذه الحاجة شيئا من التعليم والتربية لهذه السنين المبكرة) مقال الدكتور كاصد ياسر الزيدى؛ محفزات الأمية في صدر الإسلام، آداب الرافدين جامعة الموصل.
- ٢٧- روى: "تعلموا القرآن خمس آيات فإنّ النبي ﷺ كان أخذ من جبريل خمس آيات" (الأشباه والنظائر فى القرآن؛ لمقاتل بن سليمان - ت: د - عبدالله محمد شحاتة - القاهرة ٥١٣٩٥ - ١٩٧٥ م، ص: ٢٧٣).
- ٢٨- السيوطى، العلامة جلال الدين، الجامع الصغير فى أحاديث البشير والنذير، المكتبة الموسسة؛ ١٣٩٤ هـ، ص: ٦٢.
- ٢٩- الإمام البخارى، الأدب المفرد، باب الخرق، شرح فضل الله الجيلانى - مطبعة سلفية - القاهرة ١٣٧٨ هـ، ١/٥٦١.

- ٣٠- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٨٨/٤. (فيقول أحد أصحابه: ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما قهرني ولا ضربني ولا شتمني...) (صحيح مسلم، باب تحريم الكلام عند الصلاة، ٧٠/٢).
- ٣١- ابن قتيبة، عيون الأخبار، دار الكتب المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م، ١١٩/١-١٢٠.
- ٣٢- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله، الاستيعاب في معرفة الأصحاب - تحقيق: علي محمد الجاوي - مطبعة نهضة، مصر - القاهرة (بدون سنة).
- ٣٣- ابن كثير، فضائل القرآن، ص: ٦٥.
- ٣٤- البخاري، صحيح البخاري بشرح ابن حجر "فتح الباري"، بيروت دار المعرفة، ٢٠٣/١.
- ٣٥- وكان بعض الشيوخ يختصون بعمود معين يجلس إليه طيلة حياته حتى يعرف العمود باسمه. (سيد مرسى أحمد، تطوّر الفكر التربوي، ط: ٣، القاهرة: ١٩٧٥ م، ص: ٢١٤).
- ٣٦- أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية ص: ٣٦٨. وتطور الفكر التربوي ص: ٢١٥ و محمد عبدالرحيم غنيمه، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، المغرب ١٩٥٣ م، ص: ١٨٢.
- ٣٧- وخاصة إذا كان الدرس في علوم الحديث.
- ٣٨- تاريخ التربية الإسلامية ص: ٣٦٨ وتطور الفكر التربوي ص: ٢١٥.
- ٣٩- تاريخ التربية الإسلامية ص: ١٩٣-١٩٤.
- ٤٠- الجاحظ، عمرو بن بحر عثمان، البيان والتبيين: ت: عبدالسلام هارون، الطبعة الثانية، القاهرة، ٣٦٧/١.
- ٤١- ياقوت الحموي، معجم الأديباء، ت: مرجليوث، مصر ١٩٢٣ م، ٢٤٣/١-٢٤٤.
- ٤٢- ابن جبير، رحلة ابن جبير، بيروت، ١٩٦٤ م، ص: ٢٤٤ و ما بعد.
- ٤٣- ياسين خليل، التراث العلمي العربي، بغداد ١٩٧٨ م، ٧٤/١.
- ٤٤- عبد الحميد الشلقاني، رواية اللغة (الرواية الأدبية في الجاهلية)، دار المعارف مصر ١٩٧١ م -
- ٤٥- محمد عبدالرحيم غنيمه، تاريخ الجامعات الكبرى، المغرب ١٩٣٥ م، ص: ١٨٠-١٨١.
- ٤٦- نفس المصدر: ص: ١٨١-١٨٢.
- ٤٧- نفس المصدر: ص: ١٨٢ وبعدها. الرواية أساسها على الحفظ، والدراية أساسها على الفهم ولقد أعطى رجال التعليم الإسلامي "الفهم" أهمية بالغة، فقسّموا العلم إلى هذين النوعين (تاريخ الجامعات ص: ١٩٧-١٩٨).
- ٤٨- ياسين خليل، التراث العلمي العربي، بغداد ١٩٧٨ م، ٧٥/١.
- ٤٩- تاريخ التربية الإسلامية، ص: ٣٦٠.
- ٥٠- نفس المصدر: ص: ٣٦٩.

- ٥١- تاريخ الجامعات الكبرى، ص: ١٨٦، وتاريخ التربية، ص: ٣٧٠.
- ٥٢- نفس المصدر: ص: ١٨٤.
- ٥٣- تاريخ التربية، ص: ٣٧٠، والتراث العلمي، ٧٥/١.
- ٥٤- تاريخ الجامعات الكبرى، ص: ٢٠١. (رأى بعض العلماء لطريقة الإملاء فائدة وأهمية كبيرة فظهرت بها شروح ومختصرات كثيرة، ووضعت المؤلفات الكثيرة في علوم كثيرة، وهم يرون أن التعليم يقف على مجموعات معينة ولا يتجاوز إلى سواها في هذه الطريقة، ويحصر الطالب على القراءة والحفظ فقط) -
- ٥٥- القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد البر النمر، جامع بيان العلم وفضله، تصحيح ومراجعة: عبد الرحمان محمد عثمان، ط: القاهرة، ١٩٦٨ م، ١/١٥٧-١٥٨. (قال النبي ﷺ: العلم خزانة، ومفتاحها السؤال، فاسئلوا، رحمكم الله؛ فإنه يؤجر أربعة: السائل، والمجيب، والمستمع، والمحب لهم). المجازات النبوية للشريف الرضي ص: ٢٠٩ رقم الحديث ١٦٩.
- ٥٦- تاريخ الجامعات الكبرى، ص: ٢٠٤-٢٠٨.
- ٥٧- وقد أشار بعض العلماء الى وسيلة مهمة من الوسائل التحصيل العلمي وهي "الرحلات لطلب العلم" فقد ذهب الطلاب المسلمون إلى مسافات بعيدة لطلب العلم في وقت كان السفر شاقاً، وقد حدّد ابن خلدون فصلاً في مقدمته، بيّن فيه ضرورة الرحلات وأثرها في كمال التعليم فقال: "فالرحلة لا بدّ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد وإكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال (ابن خلدون، مقدمة، ص: ٥٤١) (والإسلام يوكد على حصول التعليم ولو في البلاد الأجنبية فقال النبي ﷺ: (اطلبوا العلم ولو بالصين).
- ٥٨- تاريخ التربية الإسلامية ص: ٣٧٣.
- ٥٩- نفس المصدر.